الفصل العاشر

الأحزاب فى الولايات المتحدة

وجوب التمييز بين الأحزاب تمييزاً كبيراً - الأحزاب التى يقف بعضها مع بعض موقف الشعوب المتنافسة - الأحزاب التى تسمى أحزاباً بحق - الفرق بين الأحزاب الكبيرة والأحزاب الصغيرة - العصور التى تنشأ فيها هذه الأحزاب - سماتها - كان فى أمريكا أحزاب عظيمة - وقد انقرضت - الفدراليون (الاتحاديون) - الجمهوريون - هزيمة الفدراليين - صعوبة إنشاء الأحزاب فى الولايات المتحدة - ما يعمل فى سبيل إيجادها - الصبغة الأرستقراطية أو الديمقراطية التى تصادفها فى جميع الأحزاب - صراع القائد جاكسون مع بنك الولايات المتحدة.

ينبغى لنا أن نفرق بين الأحزاب تفرقة كبيرة. فثم بلاد مترامية الأطراف بلغت من سعة الرقعة أن صار لمختلف سكانها، على الرغم من اتحادهم فى ظل حكومة واحدة، مصالح متعارضة، فلا غرو إن أصبحوا فى حالة خلاف دائم، فعندئذ يحق لنا أن نعتبر أجزاء هذا الشعب المختلفة أمماً متمايزة، لا مجرد أحزاب، فإن حدثت حرب أهلية كانت أقرب إلى صراع بين أمم متنافسة منها بين طوائف مختلفة فى أمة واحدة.

ولكن عندما يختلف المواطنون فيما بينهم بشأن المسائل التى تمس أجزاء الدولة جميعها، كأن يختلفوا على المبادىء العامة التى يجب أن يجرى عليها نظام الحكم عندهم مثلا، تتجلى بينهم فروق، يصح لنا أن نسمى أنصارها أحزاباً بحق. فالأحزاب شر لابد منه فى الحكومات الحرة، ولكن لا تكون لها نفس السمات، ولا نفس النزعات فى كل الأوقات.

فقد ترهق الأمة نفسها فى عصور معينة بشرور لا تستطيع الصبر عليها، حتى ليخطر ببالها أن تحدث تغييراً كليا فى نظامها السياسى ذاته؛ وفى عصور أخرى قد يكون الشر قد تغلغل فى جسم الأمة حتى أصبح خطراً يهدد كيانها. فهذه هى العصور التى تحدث فيها الثورات والانقلابات العنيفة وتقوم الأحزاب الكبيرة. وبين عصور الشقاء والاضطراب هذه، فترات يبدو فيها المجتمع الإنسانى فى حالة استقرار، يستمتع بالراحة والهدوء، ويبدو الناس أحياء يتنفسون، ولكن هذه الفترات لا تكون كذلك إلا فى الظاهر ليس إلا، فمجرى الزمان لا يتوقف من أجل الأمم، كما لا يتوقف من أجل الأفراد، فكلهم يسيرون باستمرار نحو هدف واحد لا يعرفونه. ولسنا نستطيع أن نتصورهم ثابتين لا يتحركون إلا عندما ندرك تقدمهم هذا؛ مثلهم فى ذلك مثل قوم سائرين، فيبدون واقفين للذين يجرون بسرعة.

وأيا كان الأمر ، فثم عصور معينة تبدو فيها التغييرات التى تحدث فى تكوين الأمم الاجتماعى والسياسى بطيئة تكاد لاتحس ، فتجعل الناس يتصورون أنهم قد وصلوا إلى غاية المطاف واستقرت بهم الحال على وضع يرضونه . ولا يخفى أن العقل البشرى ، على الرغم من اعتقاده أنه قام على أسس وطيدة ، لايمد بحوثه إلى ما وراء أفق معين محدود – فهذه هى الأوقات التى تظهر فيها الأحزاب الصغيرة ، وتكثر الدسائس والمؤامرات .

إن الأحزاب السياسية التى أسميها أحزاباً كبيرة هى تلك التى لها مبادىء معينة ، تستمسك بها أكثر مما تستمسك بما يترتب عليها من عواقب ؛ فهى تأخذ بالآراء العامة لا بالحالات الجزئية الخاصة ؛ وتأخذ بالآراء لا بالأشخاص . وتتميز هذه الأحزاب عادة بسمات أكثر نبالة من غيرها ، وبعواطف أكرم ، ومعتقدات أكثر أصالة ، وبسلوك أجرأ وأصرح . وفيها تتستر المصلحة الخاصة ، وهى التى تقوم بالدور الرئيسى دائماً فى نزعات الناس وأهوائهم السياسية – تتستر فى حرص وعناية خلف اسم المصلحة العامة ، بل إنها قد تخفى حتى على أبصار الأشخاص أنفسهم الذين تستثيرهم وتحركهم .

أما الأحزاب الصغرى فيعوزها ، من جهة ، حسن النية فى السياسة عادة ، وإذ ليس لها أغراض سامية تسندها أو تفيض عليها شيئاً من الجلالة فإن أنانيتها تتجلى واضحة فى أفعالها وسلوكها . فهى تتوقد غيرة مصطنعة ؛ لغتها عنيفة ولكن مسلكها هياب متردد ، أما الوسائل التى تستخدمها هذه الأحزاب الصغيرة فتعسة تعاسة الغاية التى تهدف إليها ؛ فلا غرو إن بدا لنا أن عظماء الرجال يختفون فجأة فى الهدوء الذى يغشى البلاد عقب ثورة جامحة ؛ كما يبدو أن قوى العقل البشرى نفسه تختفى ، هى الأخرى . فالأحزاب الكبرى تهز البلاد هزاً عنيفاً ؛ أما الأحزاب الصغرى فتحركها ، ليس إلا ، فالأولى تمزق البلاد إربا ، على حين تهبط بها الثانية وتحط من شأنها . فإن كانت الأولى قد تنقذ البلاد فى بعض الأحيان بحركة ثورية نافعة ، فالثانية تشيع فيها الاضطراب لغير جدوى .

كان فى أمريكا أحزاب عظيمة ، ولكن لم يعد منها الآن شىء . فإن كانت سعادة البلاد قد ازدادت بذلك زيادة كبيرة ، فأخلاقها قد تأثرت ، فلما انتهت حرب الاستقلال وأخذ المسئولون يضعون الأسس التى ستقوم عليها الحكومة الجديدة ، كانت الأمة منقسمة بين رأيين قديمين ، قدم العالم كله ؛ نصادفهما على الدوام فى صور شتى ، وبأسماء مختلفة فى كل مجتمع من المجتمعات الحرة . فأحد الرأيين يهدف إلى الحد من قوة الشعب ؛ على حين يهدف الآخر إلى مدها إلى أبعد حد ؛ إلا أن الصراع بين هذين الرأيين لم يصل قط فى أمريكا إلى تلك الدرجة من العنف التى كثيراً ما تجلت فى غيرها من البلاد . فالحزبان فى أمريكا متفقان كلاهما على أهم النقاط الأساسية ، وليس واحد منهما بحاجة إلى العمل على هدم دستور قديم أو قلب كيان المجتمع كى يتم له النصر على الحزب الآخر . وعلى هذا فليس لها مصالح كثيرة خاصة يمكن أن تتأثر بالنصر أو بالهزيمة ، بل كان الصراع يدور

حول مبادىء أخلاقية وسياسية مثل حب المساواة وحب الاستقلال وغيرهما . وفى هذه ما يكفى لاستثارة انفعالات الناس العارمة.

حاول الحزب الذى اتجه إلى الحد من قوة الشعب أن يطبق مبادئه على دستور الاتحاد بوجه خاص ، ومن ثم سمى هذا الحزب . « بالفدرالى » أما الحزب الآخر الذى ادعى بأنه وحده دون غيره هو الذى يستمسك بقضية الحرية . فقد اتخذ له اسم الحزب الجمهورى . إن أمريكا بلاد الديمقراطية ، فلا غرو إن كان الفدراليون أقلية دائماً ، ولكن كان منهم مع ذلك جل الرجال العظماء الذين أنجبتهم حرب الاستقلال ؛ وكانت سلطتهم الأدبية عظيمة لايستهان بها . وزيادة على ذلك فقد صادفت قضية الفدراليين ظروفاً مواتية . فقد أدى فشل الاتحاد الأول إلى جعل الناس يرهبون الفوضى ، فاستفاد الفدراليون من نزعة الشعب المؤقتة هذه ، وظلوا نحو عشرة سنين أو اثنتى عشرة سنة والأمر والنهى فى أيديهم ، حتى استطاعوا أن يطبقوا بعض مبادئهم إن لم يتمكنوا من تطبيقها كلها . ثم أخذت التيارات المعاكسة لهم تزداد قوة يوماً بعد يوم ، حتى لم يعد فى الإمكان صدها . ففى سنة (١٨٠١) استولى الجمهوريون على الحكم وانتخب توماس جفرسون للرياسة . وازداد حزبه قوة بما لإسم الرئيس من وزن كبير . وبما له من مواهب عظيمة ، وشهرة مستفيضة وحظوة كبيرة عند الشعب[(١)] .

كانت الوسائل التى تمكن بها الفدراليون من الاحتفاظ بمركزهم ، وسائل مصطنعة ، ومواردهم مؤقتة . ولم يصلوا إلى مراكز القوة إلا بفضل مواهب زعمائهم وبفضل الظروف التى جاءت مواتية لهم . فلما جاء دور الجمهوريين ووصل إلى مثل هذا المركز كان خصومهم قد أصيبوا بهزيمة نكراء ، ذلك أن أغلبية ساحقة قامت ضد الفدراليين . فلما وجدوا أنفسهم فى أقلية ضئيلة كل الضآلة ، استولى عليهم اليأس من إحراز أى نجاح فى المستقبل . ومذ تلك اللحظة ظل الحزب الجمهورى - أو الديمقراطى - يسير قدماً من نصر إلى نصر حتى صار له التفوق المطلق فى البلاد . ولما أدرك الفدراليون مدى هزيمتهم وتيقنوا من أنه لم يعد لهم موارد يعتمدون عليها ، وأنهم أضحوا معزولين وسط البلاد ، انقسموا إلى قسمين : انضم أحدهما إلى الجمهوريين الفائزين ، وأنزل الآخر أعلامه وغير اسمه ، ومضت سنون طويلة على زوالهم من الوجود بوصفهم حزباً سياسياً .

وفى رأيى أن وصول الفدراليين إلى مراكز السلطة كان حدثاً من أسعد الأحداث التى رافقت قيام الاتحاد الأمريكى العظيم . فقد كافحوا ميول بلادهم واتجاهات عصرهم .

---

(١) الرئيس الثالث (١٨٠١ - ١٨٠٩) وكان أديباً . تأثر فى تفكيره بالفلاسفة الفرنسيين . [illegible] ، من حيث مبدؤه فى السياسة ، وكان مؤمناً كل الإيمان بالشعب . وبحرية الولايات . ولا يقر تركيز الحكم فى أيدى حكومة مركزية وأما الفدراليون فكان زعيمهم ألكسندر هاملتن ؛ وإن كان لايقل عنه إخلاصاً وخدمة لقضية أمريكية فهو شخصية النقيض من شخصية جفرسون .

التى لاتقاوم . ولكن سواء كانت نظرياتهم حسنة أو سيئة فهى لم تسلم من عيب أنها لايمكن تطبيقها جملة على المجتمع الذى أرادوا أن يحكموه . وما حدث برعاية جفرسون ، كان لابد أن يحدث عاجلاً أو آجلاً . ولكن حكومتهم قد يسرت على الأقل للجمهورية الجديدة الوقت الكافى ، لتستقر بعض الاستقرار ولتساند فيما بعد ، من غير إرهاق لها ، النمو السريع لتلك المبادىء نفسها التى كانوا يحاربونها من قبل . وزيادة على ذلك ، فقد انتهى الأمر باندماج كثير من مبادئهم فى عقيدة خصومهم السياسية . هذا ، وإن الدستور الفدرالى القائم الآن ليعد أثراً خالداً يشهد بما لهم من وطنية ومن حكمة .

لم نعد نرى فى الوقت الحاضر إذن أحزاباً سياسية كبيرة فى الولايات المتحدة . نعم إنا قد نجد فيها أحزاباً تهدد مستقبل الاتحاد ، ولكن ليس بها حزب واحد يعارض شكل الحكم الحاضر . ولا الاتجاه الذى يسير فيه المجتمع الآن . هذا ، والأحزاب التى تهدد الاتحاد لاتقوم على أساس أى مبادىء عامة ، بل على أساس من المصالح المادية ، وهى مصالح تشكل فى مديريات الامبراطورية الواسعة ، ما هو أشبه بمصالح أمم متنافسة بعضها مع بعض ، منه بأحزاب . فقد رأينا حديثاً الشمال يجاهد فى سبيل إيجاد نظام لحماية التجارة ، على حين هب الجنوب يدافع بالسلاح عن مبدأ حرية التجارة . ومرد ذلك إلى أن الشمال بلاد صناعية ، على حين أن الجنوب بلاد زراعية ، فنظام الحماية الذى يعود بالخير على أحدهما يعود بالضرر على الآخر .

ولعدم وجود أحزاب كبيرة فى الولايات المتحدة امتلأت البلاد بموضوعات الجدل والنقاش التافهة ، وانقسم الرأى العام آلافاً من الأقسام ليس بينها سوى فوارق ضئيلة من مسائل تفصيلية . فمن العسير أن نتصور الجهود التى تبذل لخلق الأحزاب ، وهو أمر مازال شاقاً حتى فى الوقت الحاضر . وليس فى الولايات المتحدة عداوات دينية ، فكل الأديان تنال حظها من الرعاية والاحترام ؛ ولا توجد طائفة دينية غالبة ؛ ولا مجال لقيام الغيرة والكراهية بين الطبقات ؛ فالشعب هو كل شىء ، وليس لأحد أن ينازعه سلطاته . وأخيراً ليس فى البلاد بؤس عام ، حتى يتخذه بعض الناس ذريعة لإثارة عوامل الاضطراب . فموقع البلاد الجغرافى يفسح المجال كل الإفساح للعمل ، فحسب المرء أن يترك وشأنه ليأتى بالعجائب .

ومع ذلك فذوو المطامع كثيراً ماينجحون فى تكوين أحزاب . فمن الصعب طرد أى إنسان من منصبه ذى السلطان بحجة أن آخرين يطمعون فى ذلك المنصب ؛ وكل مهارة العاملين فى المجال السياسى مقصورة على تكوين الأحزاب . فالرجل السياسى يبدأ بأن يميز أولاً مصلحته الخاصة ، ثم يعرف المصالح الأخرى التى يصح أن تتجمع حول مصلحته هذه وتندمج فيها ، ثم يحاول بعد ذلك أن يتوصل إلى إيجاد مذهب أو مبدأ يتفق مع أغراض هذه الجماعة كى يؤلف حزبه ويظهره فى الوجود ، ويحصل له على الحظوة والشهرة بين الناس . فما أشبه ذلك بصورة الملك التى كانت تطبع فى الزمن الماضى على غلاف الكتاب وصفحة

عنوانه ، وبذلك تصبح جزءاً من كتاب لا صلة لها به على الإطلاق . وبعد أن يتم ذلك كله يظهر الحزب الجديد فى أفق العالم السياسى .

تبدو مناقشات الأمريكيين فى أمورهم الداخلية هذه للغريب عن البلاد أموراً صبيانية لأول وهلة ، أو أموراً غير مفهومة . فيحار فى أمره ، أيرثى لشعب يأخذ أمثال هذه التوافه مأخذ الجد ، أم يغبطه على تلك السعادة التى تتيح للجماعة أن تتحدث فى هذه الأمور وتناقشها ؟ ولكن ما أن يشرع هذا الغريب فى درس الميول الحقيقية التى تحرك شتى الطوائف فى أمريكا ، حتى يتبين له أن الجزء الأعظم منهم على اتصال كبير أو صغير بهذا القسم أو ذاك من هذين القسمين الكبيرين اللذين يوجدان دائماً فى كل المجتمعات الحرة . وكلما تعمقنا ونفذنا إلى صميم تفكير هذين الحزبين أدركنا أن هدف أحدهما أن يحد من سلطان الشعب ، على حين يهدف الآخر إلى التوسع فيه . لست أؤكد هنا أن غرض الأحزاب الأمريكية الظاهر أو الخفى ، أن تعمل على تأييد الحكم الأرستقراطى أو الديمقراطى فى البلاد ، ولكن أؤكد أن النوازع الديمقراطية أو الأرستقراطية يسهل إدراكها وراء كل حزب من الأحزاب ؛ ومع أنها قد تعز على الملاحظة الضحلة ، فإنها مع ذلك روح كل حزب فى الولايات المتحدة وموضوعه الأساسى .

ومن الأمثلة على ذلك أن الرئيس جاكسون[١] ، لما هاجم بنك الولايات المتحدة هاجت البلاد وتكونت فيها شيع وأحزاب ، وتكتلت الطبقات المطلعة على بواطن الأمور حول البنك ، ووقف عامة الناس فى صف الرئيس . ولكن يجب ألا نتصور أن الشعب قد كون لنفسه آراء معقولة بشأن مسألة يراها أكثر السياسيين حنكة وخبرة حافلة بالصعوبات . كلا ! إن البنك مؤسسة كبيرة لها كيان مستقل . ولما كان الشعب قد اعتاد أن يعين من يشاء ويعزل من يشاء ، عز عليه أن تقوم هذه العقبة فى سبيل ممارسته سلطته . تضايقت الجماعة من أن تجد أمامها مؤسسة ثابتة هذا الثبات تتحدى سلطتها ، فاندفعت تهاجمها كى ترى إن كان فى مقدورها أن تزحزح هذا البنك كما تستطيع أن تزحزح كل شىء غيرها عن مكانه .

بقايا الحزب الأرستقراطى فى الولايات المتحدة

الأغنياء يقاومون الديمقراطية سرا - انعزالهم - ميلهم إلى المتع الخاصة والرفاهية والكماليات فى أمريكا - ولمراعاة البساطة خارجها - تكلفهم التواضع والنزول إلى مستوى الشعب .

قد يحدث أن يزول بعض ما بين الأحزاب من توازن فى شعب انتشرت فيه آراء مختلفة ، فترجح كفة واحد منها رجحاناً كبيراً ويتغلب على كل ما فى سبيله من عقبات ، ويقضى على خصومه ، ويستولى على جميع موارد الدولة ويستغلها لمصلحته الخاصة ، ويستولى

(١) أندرو جاكسون تولى الرياسة من ١٨٢٩ - ١٨٣٧ .

اليأس على الأحزاب المهزومة فتختفى أو تلتزم الصمت ... وعندئذ يبدو فى الأمة كلها مبدأ واحد شامل يحكمها كلها ، ويسودها هدوء عام ، ويدَّعى الحزب الغالب شرف إعادة السلام والوحدة إلى البلاد . ولكن مع وجود هذا الاتفاق الظاهرى فى الآراء لاتزال فيها اختلافات عميقة ومعارضة حقيقية .

هذا ماحدث فى أمريكا عندما صار الأمر كله إلى الحزب الديمقراطى . فقد استأثر وحده بإدارة شئون البلاد ، وظل منذ ذلك الوقت يشكل العادات الأخلاقية ، ويكيف القوانين بحسب أهوائه ورغباته . وإنا لنستطيع أن نقول أن ليس للطبقات الثرية فى الوقت الحاضر أى ضلع فى الشئون السياسية ، فبدلاً من أن تمنح الثروة صاحبها حقوقاً ما ، أصبحت سبباً حقيقياً لنفورهم منه ، وعقبة تحول بينه وبين الوصول إلى القوة والسلطان . فلا غرو أن آثر الأغنياء أن يغادروا الميدان ، على أن يواصلوا النضال ضد طبقات الفقراء من مواطنيهم ، وهو نضال كثيراً ما يكون غير متكافىء ، ولا جدوى منه . ولما عجزوا عن أن يشغلوا فى الحياة العامة مركزاً يعادل ما يشغلونه فى حياتهم الخاصة انصرفوا عن الحياة العامة واقتصروا على الحياة الخاصة ، فكونوا لهم فى الدولة مجتمعاً خاصاً له أذواقه وملذاته . وقد أذعنوا لهذا الوضع القائم على أنه شر لامناص منه ولا أمل فى علاجه . ولكنهم صاروا يحرصون على ألا يظهروا أنه يضايقهم . فكثيراً ما سمعناهم يشيدون علناً أمام الجمهور بمزايا الحكم الديمقراطى وبالمؤسسات الديمقراطية . فالناس يميلون كل الميل إلى أن يتملقوا أعداءهم بعد أن يكونوا قد كرهوهم كل الكراهية . ولنضرب لك مثلا بذلك المواطن الذى يحرص على إخفاء ثروته عن الأبصار ؛ فشأنه فى ذلك شأن اليهودى فى العصور الوسطى ؛ فترى زيه بسيطاً ، وسلوكه متواضعاً خالياً من كل صلف واستعلاء ؛ ولكنك تجد بيته مع ذلك يتألق بمجالى الترف ، إلا أنه لايسمح بدخوله إلا لفئة مختارة من الضيوف يقول عنهم فى تبجح أنهم أنداده . فليس ثمة شريف من شرفاء أوربا أشد من هذا الفتى الأمريكى ميلا إلى العزلة والانفراد بنفسه فى الاستمتاع بملذاته ، ولا أحرص منه على الاستمتاع كذلك بأدنى فائدة يخوله إياها مركزه الممتاز . ومع ذلك فهذا الشخص نفسه يمضى إلى متجر صغير يغشاه التراب ، وسط « المدينة » حيث حى الأعمال ، وحيث يستطيع كل من يشاء أن يقابله ويتحدث إليه . فإن قابل فى طريقه صانع أحذية ، وقف يتحدث إليه فى شئون الدولة ثم يصافحه عندما يفترقان .

ولا يشق على المرء منا أن يدرك أن وراء هذه الحماسة المتكلفة وتلك المجاملات الذليلة الموجهة إلى القوة الغالبة ، أن الأغنياء ينفرون كل النفور من مؤسسات بلادهم الديمقراطية . فالشعب قوة يخشون بأسها ويحتقرونها معاً . فلو حدث أن أدى سوء الإدارة الديمقراطية إلى حدوث أزمة سياسية ، وحدث أن تبين للناس أن المؤسسات الملكية يمكن أن تكون أمراً عملياً فى الولايات المتحدة ، لاستبان صدق ما عرضته هنا من الآراء .

تستخدم الأحزاب السياسية سلاحين رئيسيين لإدراك ما تنشده من نجاح : حرية الصحافة وحرية الاجتماع .